ليالي الداخلية

رواية تتناول حياة الكاتب ورفاقه من الطلبة في الداخلية """""دار الطالب """"بفجيج شرق المملكة المغربية في السبعينيات من القرن الماضي
تصوير للاحداث و نقل للصور المثيرة داخل فضاء الدار وفي المدينة منذ وصول الكاتب الى الداخلية 1974 حتى خروجه منها 1978

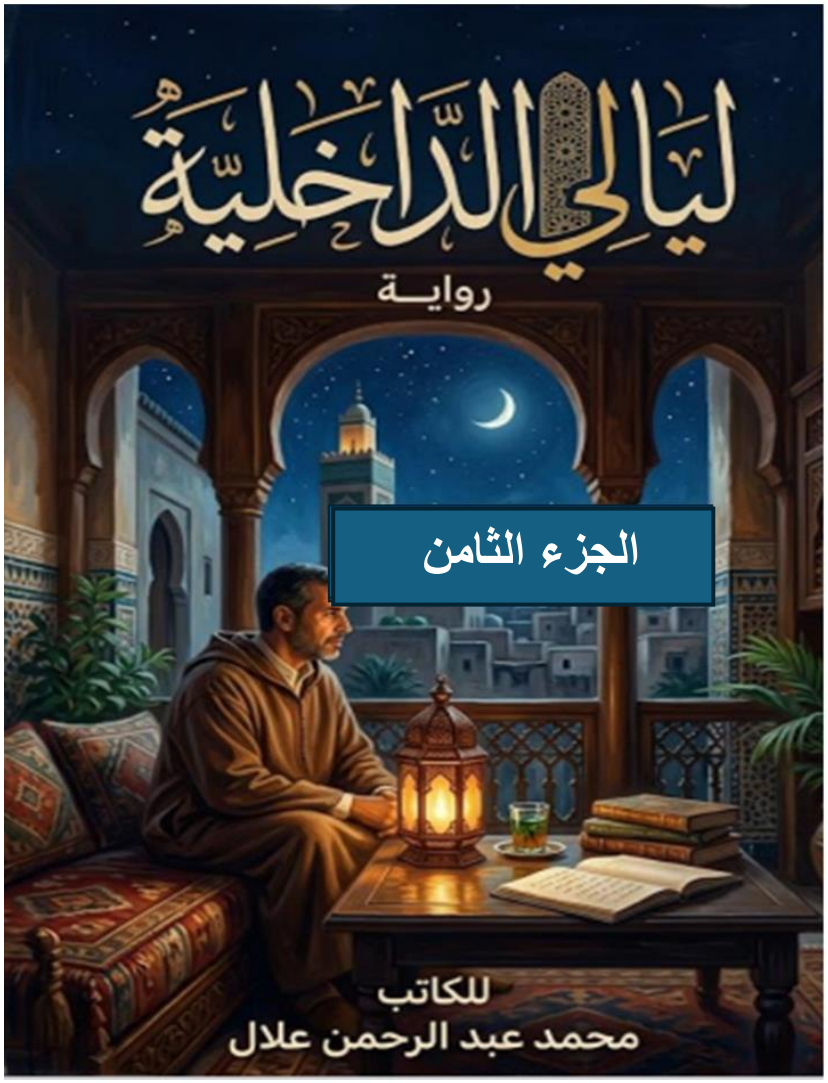

في ثانوية سيدي عبدالجبار ،كان على موعد مع أربعة رجال ،أربعة معلمين أساتذة ،أربعتهم سيغيرون الكثير في حياته .سيقلبون الكثير من المفاهيم المعتادة في نظره الى مفاهيم حياتية أكثر تقدما وعاطفية .وقف ""سي البشير ""طودا شامخا كمعلم للغة العربية هرما من الاخلاق والمعرفة والنظر الثاقب الى المستقبل ..اسمر الوجه قليلا .متوسط القامة ,ذا شارب ممتلئ اسود يخفي شفته العليا تماما ..يرتدي على الدوام معطفه البني . حذاءه يميل الى الصفرة الا قليلا. .تفرد السي البشير في طريقة تدريسه للطلاب .تميز عن الاخرين بتحفيظ النصوص نثرا وشعرا ومن المقالات والمقامات دفعا لهم الى اكتساب رصيد متين البنيان في مادته.لا يغلبه أحد في ذلك ولا يستطيع أحد إقناعه بغير ذلك .ان يخطط للدرس فهو المهندس .وان يعالج

تعثرا لدى الطلاب فهو الطبيب المتمرس وجده تيمح رجلا متسامحا نادرا ما. يغضب .في يوم الاختبار وهو يراقب ،كان يتغافل عن النقالين والغشاشين خوفا من ان يقهرهم .لكن ذلك لم يخل من كونه مجرد فخ ينصبه لهم .فاذا جاء وقت الاختبار الشفهي ،كشف غشهم ،ونبههم بكلمات الأستاذ الحكيم و الاب الرؤوف بل الصديق الكريم الذي يغار على صديقه. كانت حصة المطالعة عند سي البشير ماتعة، يقرأ الطلاب النص أولا بصوت مسموع. ثم يأخذ من زمن حصته قليلا ليحفظوا منه جزءا قد أعجبتهم سلاسة أسلوبه ورصانته ،أو جمال صوره الإبداعية ،او كلمات رأوا فيها قوة ومتانة .ثم يستظهرون امامه .هو اكثر المعلمين دفعا لطلابه الى المطالعة .كان بحرا من الثقافة تجري الفصاحة على لسانه نثرا مسجوعا وشعرا منظوما .إن يقل يفعل ،وان يأمر يطع وإن يجد من طلابه اعوجاجا يقومه بِطِيبَتِه وكريم شخصه.

في الجانب المقابل للفصل الذي يدرس به سي البشير ،اعتلى""سي احمد الشاهدي"" منصة تدريس الفرنسية . عالم آخر ،دنيا جديدة في حد داته .كأنه وسي البشير يعزفان انغام الجِدِّ ؛ينشدان ألحان السماحة على قيثارة المثالية العذبة.كان سي الشاهدي أحمر الوجه. يرتخي شعره الاسود ناعما من على جوانب رأسه فيأخد على كتفيه متكأ. برز للعين طويل القامة، نحيفة بنيته قليلا. شابا طيبا. منفتحا على طلابه. يغازلهم بكلمات مخاطبا ادراكهم. عزم كل العزم على حسن تدريبهم على مادته. ظهرت عليه منذ أول حصة بواده اندفاعه نحو طلابه. يكلمهم ويسمح لهم بمحادثته. يفتح أمام أعينهم عوالم العصرنة والحداثة واستشراف المستقبل.تجري على لسانه كلمة اجنبية لم يتبن تيمح معناها ولا مغزاها الا بعد .""هاوس"" لم يقدر أحد من الطلاب تعرف سبب ادراجها على لسانه وهو منهمك في شرح درسه الممتع .كان تيمح معجبا بشخصه وهو على الطريق ،وهو بالفصل ،بل وهو جالس بين

ثلة من زملائه في العمل في احدى المقاهي العتيقة بالمدينة .اعجب به اعجاب الصديق الخلص بصديقه حتى انتهى الامر بينهما أن يجعله صديقا .أن يقربه إليه دون الاخرين . في ذلك المساء، والوقت ظلام بالخارج يقترب من السادسة مساء؛ عبى يعد دقائق عن الخروج ،جلس سي احمد الى كرسيه خلف المكتب الخشبي، يسلط عليه المصباح شعاعا زاد وجهه إشراقا و وقارا ، في ذلك المساء و الحصة تتعلق بدراسة المؤلفات ،و بين يديه كتاب يعلو غلافه عنوان:""العندليب في القفص"" le rossignol en cage""" ،خاطب الأستاذ الطالب تيمح """ لو كان هذا العندليب لك ،هل كنت ستحب له الحرية ام تحبذ ان يبقى في القفص محبوسا؟"" فهم تيمح اللغة التي خاطبه بها استاذه - وقد دربه "سي بدوي" على الفرنسية في الفصل الخامس قبل سنوات -لكن مضمون ما أراد أن يرمي إليه غاب عنه ساعتها .لم يكن تيمح آنذاك يعلم أن للحرية مفهوما ،وأن للحرية ثمنا ،وان للحرية تكلفة يجب أن يؤديها من

يريد ان يتمتع بها .قال في عجالة وما يزال صدى الأفكار التي ورثها عن قريته "ايش" يشغل جانبا كبيرا من عقله :""أريد أن يبقى في القفص" «خاطبه أستاذه ببراءة ابن القرية الذي كان يهوى قنص العصافير ليتسلى بها، او يلذبحها بشفرة الحلاقة ويشويها ثم يأكل لحمها .حين سأله الأستاذ الشاب عن السبب ،لم يجد ما يقوله سوى كلمة ""هاكاك -هكذا *comme ça*"""أمسى الأستاذ يبتسم في وجهه وخو من لم يعجبه جوابه ولا أقنه .قبل الخروج بقليل سأله الأستاذ""هل لك صديق مميز "" كان الجواب سريعا بالإيجاب """ oui « « monsieur .j'ai un ami » » »اردف الأستاذ بسؤال مقتضب غير متوقع قلب كيانه وغير كل شيء في حياته "" ami -e- ou sans -e;avec -« طأطأ تيمح رأسه حياء واكتفى بقول :"*non monsieur*" في ذلك المساء الغابر ،فتح سي الشاهدي عيني تيمح وعقله وعواطفه على عوالم ظلت الى حدود تلك اللحظة غامضة مجهولة .فتحها على مفاهيم جديدة ومعان

سامية أبرزها الحرية والحب والعلاقة مع الاخر ....

كان سي الشاهدي هو معلمه في الفرنسية في سنته الأولى بفجيج بقسم الملاحظة. يتذكره وهو يضع على السبورة اللبدية صورا للاب ""نويل"" ،وكان يسميه ""لاستغولوك «*l'astrologue*»""كان الرجل على الصورة ذا لحية بيضاء كثيفة ،يضع على رأسه قبعة حمراء ،وكان يحمل هدايا أعياد الميلاد .لم تغب صورة هذا الرجل منذئذ عن ذهن تيمح .بعد فترة من الزمن وقد بلغ مستوى الثالثة ثانوى على ذلك الزمن ،حضرت الصورة بذهنه في شخص معلم الاجتماعيات . كان "سي بنعلي" رجلا فارع الطول ،احمر الخدين .ذو لحية سوداء طويلة تكاد تغطي جانبا من صدره .،عريض جسمه .يعانق السبورة ودخوله الفصل لا يجلس على كرسي عياء ولا تمضية للوقت .و يقف حداء مكتبه إلا عابرا ليتفقد صفا به طلاب يحتاجون مساعدة . يبدأ الأستاذ

درسه برسم خريطة للبلاد التي ستكون محور حصته .كان حافظا مميزا لكل خرائط بلدان العالم .بمناطقها المختلفة مساحة ومواقع . أكثر ما كان يحبه تيمح في درس هذا لمعلم الفذ ،هو اتقانه لخريطة الصين والهند والكوريتين وغيرهما من خرائط دول اسيا .كانت يد سي بنعلي على السبورة السوداء ريشة لفنان ماهر يرسم لوحته بأبعادها اللا متناهية ،بألوانها الزاهية ،بكل تفاصيلها الدقيقة . يفزع الطلاب إن طلب من أحدهم رسم خريطة البلاد المدروسة بالأمس على السبورة. لا يتوقف عن التأنيب متى ظهر له اعوجاج في خط ، أو انحناءة أو استقامة في غير محلهما من الخريطة. لا ينسى أن يستظهر الطلاب أمامه ملخصات أعدها لهم سابقا. انزعاجه من المتكاسلين لا تطيقه نفوسهم. وتشجيعه للمجدين لا تشبع من طلاوته أرواحهم.

على بعد خطوات من الفصل الذي يشغله سي بنعلي ،في الطابق الأرضي ،أثر

أستاذ الرياضيات ""سي اعمر"" أن يقدم مادته لطلابه كان معلما من أهل البلد . يرتدي جلبابا صوفيا طوال فترة القر .كان شابا متوسط الطول .حسن الوجه .صارما في تقديم درسه .تخصص سي "اعمر"في مجموعة" q"" ولم يكن تيمح يفقه في حسابها شيئا ما عدا الرموز فيها .اذا دخل القسم زجل قلب تيمح مخافة ان يطلب منه القيام الى السبورة لحل مسألة من المسائل .لم يكن دعاء تيمح لنفسه بالمال ولا بالجاه ولا بعرض من أعراض الدنيا ،كل ما كان يرجوه من الله ألا يفطن ""سي اعمر"" لوجوده فيأمر ب فعل ما يكره . كان معجبا بشخصه رغم خوفه الشديد منه .دخل عليهم ذات صباح وعلى جسده جلبابه المعتاد ،لكن رجليه ما كانتا تنتعلان حذاء يليق بوظيفته كان عليهما « les bottes » ما يزال شيء من طيق البساتين عالقا بهما .كان حافظا متقنا لمادته .يقدمها سلسة ممهدة تتلقفها عقولهم فتعقلها و تتزين بفك رموزها الواحهم إلا عقل تيمح ولوحته .

كان تيمح يأخذ عن اساتذته خلقهم العظيم ،يدهشه اخلاصهم في تعليم الطلاب .تسمو به شخصياتهم القوية الى مراتب المعاني السامية للنفس البشرية .تجلى اعجابه بهم في عمق ثقافتهم .في نبل خلقهم .في عزة نفوسهم .في طيب الكلام الذي يخرج من أفواههم . في العناية بمظهرهم .في الأماكن التي يرتادونها حيث لا حديث يعلو عن حديث العلم والثقافة والرياضة .عند المساء ،والشمس تفتر للمغيب ،كان تيمح يغادر دار الطالب صوب مكان بين قيادة فجيج والثكنة العسكرية .كان عبارة عن ساحة لممارسة بعض الرياضات الخفيفة .هناك ،كان يحلو له أن يحضر مباريات الكرة الطائرة بين فريق من المعلمين وفريق من الجنود تبدو له الشمس صفراء مودعة تخفي الكرة الطائرة حركتها وقد قذفت بها يد أحد اللاعبين فتبدو سريعة كأنها نقطة سوداء في الأفق .كان ذلك يسافر به الى دنيا الجمال الخيالية ينظر الى تلك الجسوم ،يستمع الى أصواتهم .يتبع حركتهم فيبسم أو يضحك

.ظل ذلك ينفس كربته ،يخفف عنه ألم البعاد والجوع .يسافر به الى ما وراء عين الشمس حيث توجد عوالم مجهولة .لا يغادر تيمح المكان الا بعد تفرق الجميع .كان معجا بهؤلاء ,كثيرا ما اعترض سبيل احد اللاعبين فقط للسلام عليه ,لإشباع رغبة العجب في نفسه .أعجب بأطوال قاماتهم امام قامته ،ادهشه لعبهم وصراخهم عند لمس الكرة وهي على الهواء ،يفرح لنجاح فريق على حساب آخر .كان يعود والليل على الأبواب الى دار الطالب ،تتراقص في مخيلته صور ذلك المشهد الاخاذ يزينه بساطا من النخيل خلفه يمتد عبر اللأفق .كل تلك الصور كانت عناوين لصفحات ترسم في عقل تيمح ,تعلمه .تثقفه .تجلي أمامه عوالم لم يشهدها من قبل